

الباب الثاني

مكانة الطريقة الصوفية في علم التصوف

مقدمة

يرادف مصطلح الطريقة الصوفية مصطلح علم التصوف بناء على تاريخ ظهور الطريقة الصوفية في علم التصوف، وأصبح هذا المصطلح مشهوراً في الصدر الأول في الإسلام وفي تطوره. والدليل على ذلك هو تاريخ أهل الصفة المشهور، فهم المتصوفون الذين يؤدون حياة العبادة، ابتداءً عن طريق جماعة مع مجموعة معينة بطريقة وقاعدة خاصة معينة بدون مخالفة مع الشرع. وزادت هذه الجماعة تطوراً في القرن السادس والسابع من الهجرة. ومنذ ذلك الوقت تفهم الطريقة عند عموم الناس بأنها جماعة المتصوفين الذين يسلكون الطريق إلى الله تعالى فالعلاقة بينهما أنهما مترادفان لا ينفك بعضهما عن بعض فمن تكلم عن الطريقة فقد تكلم عن التصوف. وذلك حين اشتهرت جماعة الصوفية بأهل الصوفي الذين يؤدون حياة العبادة، حيث كانوا في البداية جماعة من الناس منظمين بقواعد مخصوصة معينة لا تخالف الشرع.

بين الشيخ عبد الباقر سرور التطور الأول لعلم التصوف حيث كان رواد هذا التطور جماعة من المتصوفين في المدينة، ومن هنا انتشر التصوف إلى جميع أنحاء أراضي الإسلام ولا سيما بعد توسيعها وفتحها. مثل ما هو البصرة بقيادة حسن البصري تلميذ حذيفة اليماني وكان رائد مجموعة المدارس الصوفية فيها حيث تخرج منها علماء التصوف المعتبرون مثل مالك بن دينار، وثابت اليماني، ومحمد واسع. ثم تطورت هذه المدرسة في الوقت اللاحق ببغداد بقيادة عثمان وأبو مخزة حتى أصبحت بغداد مركزاً لأنشطة التصوف أكثر نشاطاً. وفي خراسان بقيادة المتصوف المشهور إبراهيم بن أدهم فاستمر تطور هذه المدرسة حتى إلى أشكال متنوعة من الجماعات ومنهج المدارس التي تعرف في الوقت اللاحق بطريقة صوفية ويشرفها متصوف عالم مؤهل يدعى بالشيخ.

وتطورت هذه المدارس إلى جامعات ومدارس فتعرف بالطرق الصوفية ولكل من هذه الطرق مرشده من علماء التصوف فيعرف بالشيخ.¹⁵⁹

وقد اتضح أن الطريقة منهاج وسيلة يمر به السالك إلى الله تعالى، ولذلك إذا أطلق لفظ "السالك" فمعناه السالك على الطريقة. وعلى العموم، أن من أراد أن يسلك في طريقة التصوف احتاج إلى طلب المرشد أو الشيخ يرشده إليها. ويجب على الشيخ أو المرشد إرشاد مريديه وتربيتهم كما بينه الشيخ الطيبي عن وجوب الإرشاد من المرشد، فقال: "لا ينبغي

¹⁵⁹ طه عبد الباقي سرور. 1952م. من أعلام التصوف الإسلامي. القاهرة. دار النهضة. ص: 34.

للعالم - ولو تبخر في العلم حتى صار واحد أهل زمانه - أن يقتنع بما علمه، وإنما الواجب عليه الاجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الطريق المستقيم، حتى يكون ممن يحدثهم الحق في سرائرهم من شدة صفاء باطنهم، ويخلص من الأدناس، وأن يجتنب ما شاب علمه من كدورات الهوى وحظوظ نفسه الأمارة بالسوء، حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه، والاقتراس من مشكاة أنوار النبوة، ولا يتيسر ذلك عادة إلا على يد شيخ كامل عالم بعلاج أمراض النفوس، وتطهيرها من النجاسات المعنوية، وحكمة معاملاتها علماً وذوقاً، ليخرجه من رعونات نفسه الأمارة بالسوء ودسائسها الخفية. فقد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان شيخاً له، يرشده إلى زوال تلك الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله بقلبه، ليصح حضوره وخشوعه في سائر العبادات، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا شك أن علاج أمراض الباطن واجب، فيجب على كل من غلبت عليه الأمراض أن يطلب شيخاً يخرجّه من كل ورطة، وإن لم يجد في بلده - أو إقليمه - وجب عليه السفر إليه".¹⁶⁰

¹⁶⁰ الكردي. تنوير القلوب. ص: 440. الدندراوي، الشيخ أحمد بن محمد سعيد جمال الدين الدندراوي. 1354هـ. الفائض المؤثر المروية. سربين. سوفي أوجوغ فريس. ص: 8-9.

وقد تحقق بأن الطريقة من التصوف، فالطريقة يطلق على جماعة من المتصوفين الذين يسلكون الطريق إلى الله تعالى. والعلاقة بين الطريقة والتصوف علاقة الترادف. فالكلام عن الطريقة معناه الكلام عن التصوف.

وعرف الشيخ مولانا محمد زكريا الكندهلوي المتوفى سنة (1245هـ) : "التصوف والإحسان شيء واحد".¹⁶¹ وقال أيضا : "الطريقة الصوفية ويقصد بها الطريقة الموصلة إلى درجة الإحسان أو الطريقة الموصلة إلى التصوف. طريقة جماعة من المتصوفين أو الطريق إلى الله ومرضاته أو الطريق إلى معرفة الله وما أشبه ذلك".¹⁶²

قال شيخ الإسلام حسين أحمد المدني -رحمه الله- المتوفى سنة (1377هـ) : "المقصود الأصلي من السلوك هو الإحسان أي أن تعبد الله كأنك تراه، -الحديث- يعني أن السالك تتولد فيه ملكة راسخة وهذا من حيث البداية، وأما النهاية فهو الحصول على رضا الباري عز اسمه".¹⁶³

ورغم رأى كثير من المتصوفين بأن مصطلحي الطريقة والتصوف مترادفان، لكن بعد بحث وتفصيل، هنا بعض الفروق التي تميز بينهما وذلك بالنظر إلى عادات ومناسبات كل منهما في

¹⁶¹ الكاندهلوي. محمد زكريا الكاندهلوي. 1399هـ. الشريعة والطريقة. القاهرة. دار الإرشاد. ص : 101.

¹⁶² الكاندهلوي. نفس المرجع. ص : 100.

¹⁶³ الكاندهلوي. المرجع السابق. ص : 109.

استخدامه. وإذا نظرنا مرة ثانية إلى تعريف الطريقة عند الشيخ محمد زكريا الكندهلوي : فهي الطريقة التي توصل المؤمن إلى درجة الإحسان. والإحسان هو التصوف.

وقال زكريا الكندهلوي أيضا : "والطريقة في الواقع هي اسم ثان للإحسان المذكور أو أنها الطريقة التي يمكن بها الحصول على صفة الإحسان".¹⁶⁴ وأن المقصود أصلا هو الحصول على درجة الإحسان وهذه المجاهدات والرياضات التي اختارها الصوفية إنما اختاروها بسبب الأمراض القلبية.¹⁶⁵

فظهر بأن المراد من الطريقة هو طريقة المجاهدة وأما التصوف هو نتيجة المجاهدة أو ثمرتها. وبكلمة أخرى أن الطريقة من الناحية الروحانية، وأما التصوف من ناحية الثمرة الروحية. ولذلك فالمؤمن الذي عمل بالطريقة سيحصل على النتيجة حيث يظهر من الذنوب، فيسمى المؤمن بالصوفي، ويسمى علمه بالتصوف، ويسمى تطبيق العلم بالطريقة.

ورأى علماء التصوف بأن طريقة المجاهدة تعني الطريقة للحصول على الصفات الحمودة، وتطهير القلوب عما سوى الله سبحانه وتعالى. وقال الشيخ أبو حسين أحمد بن محمد البغوي النوري المتوفى سنة (295هـ) : "التصوف ليس أعمال الظاهر، وليس علما من العلوم بل

¹⁶⁴ الكندهلوي. نفس المرجع. ص : 99.

¹⁶⁵ الكندهلوي. نفس المرجع. ص : 114.

التصوف هو أخلاق".¹⁶⁶ ويقصد بالأخلاق أيضا أداب الأعمال، فالله سبحانه وتعالى لا يقبل عملا ليس فيه أدب، والغافلون ليس لهم أداب في صلاتهم. لأن الأعمال بذكر الله والقيم الروحية شهادة على عمل من الأعمال وإن كان ظاهرا، لأن تعاليم الإسلام لا تتوقف على الأركان الظاهرة فقط بل وعلى الأركان الباطنية¹⁶⁷ بل هي أفضل من غيرها. فبناء على هذا فذكر الله ركن أساسي في الطريقة الصوفية. وقد اتضح بأنه بدون المجاهدة لن يصل الشخص إلى ما قصده من الوصول إلى الله تعالى ومرضاته.

وفعلا، بأن الطريقة من التصوف كما ذكر كثيرا في الباب السابق. ورغم ذلك هناك قول يقول بأن بالتصوف ليس بممارسة الطريقة التي اشتملت على المجاهدة، ورغم كثرة المجاهدة فإنها لا تضمن الوصول إلى الهدف لأن الجميع من فضل الله تعالى وهبته.

ومع ذلك فإن المراد من ذكر الله في الطريقة لا يساوى الذكر والأوراد بعد الصلوات المكتوبة، لكنه ذكر خاص له كصفات وآداب معينة. وصرح الشيخ النيسابوري بأهمية رعاية هذه الآداب وقال الشيخ أبو حفص الحداد النسابوري المتوفى سنة (269هـ) يقول: "التصوف كله آداب : لكل وقت أدب، ولكل مقام أدب، ولكل حال أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ

¹⁶⁶ المحجوري. كشف المحجوب. ج، 2. ص : 238.

¹⁶⁷ أي الروحية.

الرجال، ومن ضيع الآداب، فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن
القبول¹⁶⁸

فالمتصوفون يجعلون ذكر الله ومراقبته طريقة إلى الله تعالى. فهم يعتقدون بأن هذه الطريقة
توصلهم إلى ما قصده من الوصول إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى. فعلى هذا فالشخص الذي
سلك في الطريقة الصوفية فهو في نفس الوقت يطبق علم التصوف ويدبره.

فيفهم مما سبق أيانه بأن الطريقة الصوفية مضمون علم التصوف حيث أنها جزء منه،
ونستخلص هنا مفهوم الطريقة الصوفية في علم التصوف على وجه العموم فهو الكلام عن
تعريف الذكر وآدابه، وبيان الصفات الحميدة والصفات المذمومة، ومذاهب الطرق الصوفية،
أسماءها وموقف سلسلة المشايخ الذي يلقن الذكر أو الورد على المريد. بل هي التي توجد في
الطريقة الصوفية التي نشرها العلماء المتبرون من أول ظهوره حتى الآن، ولا يستطيع أحد أن
ينكر عليها. وأن قاعدة الأعمال التي أحاطها المتصوفون الأولون والآخرون من اجتهاد رجال
التصوف الذين لهم آليات الإجتهد، ومؤهلته في علم التصوف. كما فعله الفقهاء في
اجتهاداتهم حتى عمل الناس نتائج اجتهاداتهم وسموها بالمذهب. كاجتهادات الإمام
الشافعي المتوفى سنة (204هـ) في الفقه، فالمذهب الشافعي إنما يسمى به منسوب إسمه.
فكذلك نتائج الإجتهدات في علم التصوف، كاجتهادات عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي

¹⁶⁸ الهجویری، كشف المحجوب، ص: 237.

المتوفى سنة (243هـ) فكانت طريقة تسمى طريقة المحاسبية منسوبة إلى إسمه.¹⁶⁹ وفي العقيدة كاجتهادات الإمام أبو حسن الأشعري المتوفى سنة (324هـ) فكان مذهب الأشعري منسوب إلى إسمه. فمن هنا ظهر أن العلاقة بين الطريقة وعلم التصوف علاقة التلازم، فلا يكمل أحدهما بدون الآخر.

لقد صح ما قاله الشيخ الهجويزي كما سبق ذكره في الباب السابق أنه توجد في زمانه عشرة الشيوخ المجتهدين المشهورين أنشأوا عشرة المذاهب الصوفية أو الطرق الصوفية وتنسب كل هذه الطرق إلى أسماء كل منهم¹⁷⁰

الفصل الأول : الطريقة الصوفية أساسها القرآن والحديث

الطريقة مصطلح في علم التصوف، ظهرت بعد الصدر الأول في الإسلام وكذلك المصطلحات في سائر الفنون والعلوم، مثل علم الفقه وعلم التوحيد وعلم التجويد، وغيرها. ورغم أن القرآن لم يذكر هذه المصطلحات بشكل مباشر غير أنها لا تخالف تعاليم الإسلام بل إنها مستنبطة من القرآن.

¹⁶⁹ الهجويزي. المرجع السابق. ص : 404 – 492.

¹⁷⁰ الهجويزي. نفس المرجع. ص : 493.

والذين سبقوا في طريقهم إلى الله هم الصحابة فهم الواصلون إلى الله، وعدد هذه الفئة من الصدر الأول أو الجيل الأول كثيرة، وبالعكس يقل عدد هذه الفئة في آخر الزمان. هذه حقيقة، فقد تلقى الصحابة والتابعون نور النبوة مباشرة حيث كان إمامهم في الحياة، وذلك عن طريقة الستة، فلا يضلوا عن القرآن الذي هو الأساس.

فأصل الطريقة الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، فمن الطبيعي أنها الطريقة المشهورة والمعروفة عند الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. فهي صورة للحياة الكاملة للسلف. يتحصلون الصحابة على القوة الروحية بالفيض النبوي الشريف، وهكذا كانت موجودة في التابعين وثم في اتباع التابعين - رحمهم الله أجمعين -.¹⁷¹

استخدم مصطلح الطريقة في علم التصوف لمعان مختلفة بحسب تعلقه. ورغم ذلك فإن أساس الطريقة الصوفية ذكر في القرآن وحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما عرفها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حديثه، حين أجاب سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : قال : (قلت يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله عز وجل وأسهلها على العباد، وأفضلها عند الله تعالى، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا

¹⁷¹ الكاتدهلوي. الشريعة والطريقة. ص : 100.

علي، عليك بدوام ذكر الله عز وجل، سرا وجهرا).¹⁷²

وما يقصد من الطرق (جمع الطريقة) في الحديث قد أصبح عملا خاصا لجميع المتصوفين في طريقتهم، وأساس أعمالهم وطريقتهم التي سلكوها تصادقها فئة أولي الأبواب التي ذكرت في القرآن، قال الله عز وجل : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هَلَّا مَا خَلَقَتْ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).¹⁷³

واعتبر ما يقصد من الطريقة إحدى الأسس المهمة لعلم التصوف. كما أوضحه الشيخ أبو علي الدقاق المتوفى سنة (406هـ) بذلك فقال : "ذكر الله ركن أساسي في الطريق إلى الله. بل هو العروة الوثقى في الطريق إلى الله. فمن هنا من يصل السالك إلى حضرة الله ورضاه إلا بذكر الله".¹⁷⁴ فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يذكر الله دائما ليلا ونهارا، فإنه واجب بالنسبة له. قال الله عز وجل : (وَكُنتُمْ رِجَالٌ فِي نَاسِكٍ كَفَرْتُمْ عَنْهُ وَخِيفَةُ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ).¹⁷⁵ فبهذا الأمر من الله تعالى داوم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ذكر الله ليلا ونهارا، حتى وفي يومه فإن قلبه يلازم ذكر الله، فقد قال

¹⁷² رواه الطبراني والبيهقي وابن سعد بن حسن. الشعراوي. الأنوار القدسية، ص : 27. الرفاعي. البرهان المؤيد. 1408هـ. أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني. تحقيق عبد الغني نكه مي. بيروت. دار الكتاب النفيس. الطبعة الأولى . ج، 1، ص : 38.

¹⁷³ سورة آل عمران : 190-191.

¹⁷⁴ الفلمباني. هداية السالكين. ص : 36.

¹⁷⁵ سورة الأعراف: 205.

— عليه الصلاة والسلام — عن عائشة فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال : (يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي).¹⁷⁶

فمن هنا ظهر بأن ذكر الله سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهو عمله — صلى الله عليه وسلم — وكذلك عمل الصحابة — رضي الله عنهم — كما ذكر في سورة آل عمران¹⁷⁷ عن فئة أولي الأبواب الذين داوموا ذكر الله والتفكر كما علمه الرسول — صلى الله عليه وسلم —

وهناك فئة أخرى من الصحابة الرسول — صلى الله عليه وسلم — التي ينسب إليها أصحاب الصفة¹⁷⁸ أو أهل الصفة، الذين لازموا العبادة وذكر الله، والذين كانوا زهادا وغرباء وفقراء من مهاجري الصحابة، أغربوا من ديارهم وأموالهم، لا مسكن لهم ولا مال ولا ولد يسكنون صفة المسجد وهو موضع مظلل في مسجد المدينة.¹⁷⁹ وصفهم أبو هريرة : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : (لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَقِّقَةِ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ دَاءٌ إِلَّا إِيَّاهُ وَإِذَا كَسَاءٌ قَدْ

¹⁷⁶ الحميدي. محمد بن فتوح الحميدي. 1423هـ/2002م. الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم. تحقيق د. علي حسين البواب. بيروت. دار النشر/دار ابن حزم. الطبعة الثانية. القلمباني. هداية السالكين. ص : 36.

¹⁷⁷ سورة آل عمران : 191.

¹⁷⁸ إن أصحاب الصفة كانوا أناسا فقراء. وأن الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغبراء فيه ممن لا ملوى له ولا أهل. انظر العسقلاني، أبو الإمام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي. 1379هـ. فتح الباري شرح صحيح البخاري. بيروت. دار المعرفة. ج : 13.

¹⁷⁹ دائرة المعارف الإسلامية. مادة التصوف. ص : 278. مصطفى عبد الرزاق. 1979م. الإسلام والتصوف. القاهرة. دار الشعب. ص: 34.

رَبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةً أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ).¹⁸⁰ ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى عنهم، فقال سبحانه : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ).¹⁸¹

فمكانتهم عند الله تعالى عالية، حتى أمر الله تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - بحفظهم ورعايتهم ولا يتركهم أو يضيعهم من تهديد رؤساء الكفار عليهم، قال تعالى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْوَيْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا).¹⁸²

وأخبر سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أحوال الصحابة من أهل الصفة كما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : (والله لقد رأيت أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -، فما أرى اليوم شيئا يشبههم، لقد كانوا يصحون صغرا شعنا غربا، بين أيديهم كأمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدا وقلما يلقون كتاب الله يتراوحن بين جباههم

¹⁸⁰ رواه البخاري في كتاب الصلاة. رقم: 423. البخاري. أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة بن بردزبة البخاري. صحيح البخاري. 2011م. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. دار النوادر.

بيروت.

¹⁸¹ سورة الحشر : 8.

¹⁸² سورة الكهف : 28.

وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا (أي تحركوا) كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تنبل والله ثيابهم).¹⁸³

فظهر بوضوح من عبادة أصحاب الصفة وذكرهم الله تعالى، أن أهل الصوفية تابعون أعمالهم وجعلهم قدوة لهم، كما هو معروف في العصر اللاحق.

لقد فهم الصحابة هذه الحقيقة من أمر الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - بالحفظ على أهل الصفة ورعايتهم، ذلك لأن أعمالهم طريق إلى ذكر الله تعالى وامتنال أوامره وطاعته ببركة نور النبوة. وكذلك اجتهدوا بامتنال ما أمر الله به عن طريق أسوة حسنة. فكان الصحابة والتابعون وتابعو التابعين أجيالاً أو من فئة الأولين المقربين إلى الله تعالى بأقرب الطرق إلى الله سبحانه تعالى. وذكر القرآن عنهم: *يُفْهَمُ السَّابِقُونَ* كما وصفهم بأنهم المقربون، قال تعالى: *(وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ)*¹⁸⁴ وكما بينا، أن سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ظاهرها وباطنها هي السنة، وهي تهيئة صحيحة للطريق إلى الله، وهي الطريقة التي سلكها الصحابة والتابعون وتابعو التابعين. ولقد سعى ابن الخلدون المتوفى سنة (808هـ) : طريقة أهل السلف من الصحابة والتابعين بطريق أهل الحق

¹⁸³ ابن كثير. البداية والنهاية. ج، 7. ص : 6. الأصبهاني. حلية الأولياء. ج، 1. ص : 76.

¹⁸⁴ سورة الواقعة : 7 - 11.

والهداية.¹⁸⁵ وقال الدكتور مصطفى غلوش : يتفق المسلمون على أن التصوف كان في أصله طريقة سلف الأمة الإسلامية وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.¹⁸⁶

ومن خصائص هذه الطريقة أنها تفضل حياة الآخرة، وأنها مبنية على التوبة، والعبادة، ودوام المحاسبة، وذكر الله في كل وقت وحين. فهذه هي صورة صحيحة للطريقة الصوفية التي سلكها المتصوفون، مع ذلك فإن معظم المسلمين زادوا بعدا عن الصفات التي كانت معروفة عند الصحابة في العصور الأولى، فإفخهم يشتغلون بأمور الدنيا عن ذكر الله، وإذا عرف أن الطريق إلى الله في عهد الصحابة صعب، ففي العصور التالية أصعب.

وكانوا لا يحتاجون إلى أنواع الجاهدات والرياضات وإنما يتحصلون الصحابة على القوة الروحية بالفيض النبوي الخفيف بحسب ما صلى الله عليه وسلم، وهكذا كانت موجودة في التابعين -رحمهم الله-، ولكن أقل درجة من الصحابة وفي التابعين كانت أيضا موجودة هذه القوة ألا أنها كانت قد ضعفت جدا.¹⁸⁷ كما حذرت الله تعالى في القرآن فقال : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ).¹⁸⁸ وقال تعالى : (وَالَّذِينَ اسْتَفْهَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ

¹⁸⁵ ابن الخلدون. مقدمة. ج.1. ص : 582.

¹⁸⁶ الدكتور مصطفى غلوش. دون التاريخ. التصوف في الميزان. القاهرة. دار نغمة مصر للطباعة والنشر. ص : 13.

¹⁸⁷ الكاندهلوي. الشريعة والطريقة. ص : 100.

¹⁸⁸ سورة الأنشقاق : 6.

لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا).¹⁸⁹ وقال تعالى : (فَأَمَرَ لَهُ لُوطُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).¹⁹⁰ وقال سبحانه : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

الْمُحْسِنِينَ).¹⁹¹ وقال تعالى : (فَقِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ).¹⁹² وغيرها من

الآيات التي أوضحت الدرجات المحصورة من مجاهدة سلوك الطريق إلى الله سبحانه تعالى،

وقال تعالى أيضا : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ

مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَأْذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ).¹⁹³ وقال تعالى : (وَمَنْ

يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا).¹⁹⁴

وهناك ألفاظ أخرى سواء لفظ الطريق أو الطريقة ذكرها القرآن مثل السبيل والصراف

والسابقون، فهذه الألفاظ توضح إلى معنى الطريقة في تعريفها الأصلي وعلى الوجه العموم

وهو الطريق إلى الله تعالى. فالقرآن طريق إلى الله تعالى، وهو مسطور يحتاج إلى مثال عملي

من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر وباطن. فليول المثال منه -صلى الله عليه

وسلم- لا يستطيع الإنسان أن يطبق هذا الطريق كما أراه الله تعالى في وحيه المسطور.

¹⁸⁹ سورة الجن : 16.

¹⁹⁰ سورة العنكبوت : 26.

¹⁹¹ سورة العنكبوت : 69.

¹⁹² سورة الذاريات : 50.

¹⁹³ سورة الفاطر : 32.

¹⁹⁴ سورة النساء : 69.

فالرسول -صلى الله عليه وسلم- إنسان كامل اختاره الله سبحانه وتعالى وأرسله ليكون قدوة كاملة. فأودع الله سبحانه وتعالى حقيقة هذه الطريقة وكما لها في القرآن والحديث. وباختصار فإن الطريقة الصوفية إحدى الطرق الصحيحة إلى الله أساسها القرآن والسنة.

واعترف علماء الصوف بأن عليهم مسؤولية عن استمرار الطرق إلى الله تعالى وبقائه في الحياة، كما أرشده الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه. وماهم من شيء إلا قلب سالك يتجه إلى الله بزد، واستعداد، وإرشاد، ومرشد، وأدب، ونظام، وقاعدة، واجتهاد توصلهم إلى المراد فهذه هي الطريقة الصوفية التي مر بها السالك إلى الله. قال السيد الجرجاني المتوفى سنة (816هـ) : الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المراتب.¹⁹⁵

الفصل الثاني : الطريقة الصوفية في ضوء العقيدة

تتكون العقيدة من شهادة "أن لا إله إلا الله" محمدًا -صلى الله عليه وسلم- رسول الله"، وإطلاق الشهادة يشمل معنى أوسع من إطلاق الإيمان لأن إطلاق الشهادة ليس بمجرد النطق باللسان بل يشمل معنى العلم والاعتراف والإعتقاد بصحة ما نطقه اللسان. وقال أبو الحسن

¹⁹⁵ الجرجاني. التعريفات. ص : 160.

الشاذلي : إن الطريقة هو العقيدة إلى الله تعالى، أي الاسترسال مع الله، ومن اجتاز طريق الله تعالى فهو من الصديقين. وما فوق العقيدة التي هي الأساس هو الإيمان بالله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - بامثال ما تتضمنه أركان الإيمان والاسلام والإحسان كما بينه في حديث جبريل - عليه السلام - حيث اشتمل على أركان الإيمان الستة، وأركان الإسلام الخمس، ثم الإحسان حيث قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).¹⁹⁶ والمراد من عبادة الله امتثال أوامره واجتناب نواهيه فهي طاعة لشريعته. وقال القشيري : "الطريقة سلوك طريق الشريعة أي العمل بمقتضاها".¹⁹⁷

وقال الشيخ محمد زكريا الكندهلوي في كتابه الشريعة والحقيقة : "والطريقة في الواقع هي اسم ثان للإحسان المذكور أو ألقاب الطريقة التي يمكن بها الحصول على صفة الإحسان، وهو الذي يقال له التصوف أو السلوك".¹⁹⁸

وبين ابن القيم : "زاوية من زوايا السالك الحقيقى وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى".¹⁹⁹

¹⁹⁶ الدكتور مصطفى دياب. الجامع الصحيح المختصر صحيح البخاري. 1987م. دار ابن كثير. ج، 6. رقم : 4495. أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان. وابن حنبل. مسند أحمد بن حنبل في باب الإيمان والإحسان. ج، 1. ص : 64.

¹⁹⁷ القشيري. الرسالة القشيرية : ص : 43.

¹⁹⁸ الكندهلوي. الشريعة والطريقة. ص : 99.

¹⁹⁹ ابن قيم. الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. بدون التاريخ. تحقيق لجنة من العلماء بإشراف الناشر. القاهرة دار الحديث. ج، 2. ص : 330.

وقال الحصري : "أصولنا في التوحيد خمسة أشياء : رفع الحدث وإفراد القدم، وهجر الآخرة، ومفارقة الأوطان، ونسيان علم وجهل".²⁰⁰

فيفهم من هنا أن الإحسان يثبت العقيدة مع الشريعة، أو امتثال الشريعة مع الاعتراف بالعقيدة أو نقطة الجامع التي هي ذروة كاملة للعقيدة والشريعة. فالإحسان الذي ذكره الرسول - صلى الله عليه وسلم - يمكن أن يسمى باسم آخر وهو الطريقة.²⁰¹

والإنسان في بداية سلوكه في الطريقة الصوفية يحتاج إلى الخلوة²⁰² لتصحيح عقيدته والوصول إلى معرفة الله. قال الكندهلوي : "بعد تصحيح العقائد والأعمال الظاهرة موافقة رأي أهل السنة والجماعة الصائب المأخوذ من الكتاب والسنة، يأتي سلوك طريق الصوفية حتى تتصل معرفة الحق سبحانه".²⁰³

فإن صحت عقيدته واستقرت تمشي طريقته متماسكاً مع تعاليم الإسلام الصحيحة. لكن إذا فسدت عقيدته وضعفت فإنها ستؤثر لما بعدما من الخطوات. فإن العقيدة التي هي الأساس،

²⁰⁰ السيد أحمد النقشبندى الخالدي. 1997م. جامع الأصول الطرق الصوفية. تحقيق أديب نصر الله. بيروت. الانتشار العربي. الطبعة الأولى. ص : 147.

²⁰¹ أي الطريقة المحبولة من الإحسان، مصداقاً لمقصد الطريقة في علم التصوف.

²⁰² أي انقطاع من الخلق إلى الخالق، لأنه سفر النفس إلى القلب ومن القلب إلى الروح ومن الروح إلى السر ومن السر إلى حال الكل. الترمذي. الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحاكم الترمذي. 1965م. ختم الأولياء. تحقيق عثمان إسماعيل يحيى. بيروت. المطبعة الكاثوليكية. ص : 476.

²⁰³ الكندهلوي. الشريعة والطريقة : ص : 104.

إذا فسدت تفضل سالكي الطريقة الصوفية عن الطريق الصحيح إلى الله تعالى وهم لا يشعرون. أن الإسلام طاعة وعبادة والإيمان نور وعقيدة والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة.

والعقيدة الصحيحة عند الشيخ يوسف التاج المتوفى سنة (1063هـ) هي العقيدة التي أساسها اتباع الرسول، بمعنى ما يجب أن يعتقد العبد لله تعالى هو كما هو المكتوب في القرآن والسنة، فالإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله ويوم القيامة والقضاء والقدر لا بد من أصل ومرجع منهما. وهو القرآن والسنة لا يصح أن يكون مرجعا صحيحا للعقيدة.²⁰⁴

ويظهر مما سبق من رأي الشيخ يوسف التاج أن تجد علاقة الطريقة الصوفية مع العقيدة وإحداها تتصل مع الأخرى. وتحتاج الأمة إلى كليهما لتحقيق الطريقة فتوافق مع الإسلام كما علمه الرسول - صلى الله عليه وسلم -. فالطريقة الصوفية الصحيحة هي الطريقة التي تنبت القيم العالية والأخلاق الكريمة، والتي تقوم على أساس العقيدة الصحيحة. فإن الطريقة إحدى الطرق التي تعلمك كيف تشعر معنى العبادة بالعقيدة الصحيحة. ومن هنا نستخلص أن الطريقة ترسخ العقيدة من حيث أنها تحقق العقيدة في قلب السالك.

²⁰⁴ الشيخ يوسف التاج. النفحة السيلانية في المنحة الرحمانية. مخطوطة رقم: أ - 101. المكتبة الوطنية جاكارتا. ص: 3.

وقال الشيخ ابن عطاء الله المتوفى سنة (709هـ): "لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه،

لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره".²⁰⁵

لقد وردت الآية في سورة آل عمران بأنهم أولوا الأبواب الذين يذكرون الله ويتفكرون وقالوا ربنا ما خلقت هذا باطلا. قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).²⁰⁶

فكلما تم تشبيهاهم إلى أنهم تلقوا الفضل من الله تعالى وكشفت لهم الحقيقة والمعرفة، فإن الحقيقة من صفات الله وأفعاله القدير العظيم. فضل الله سبحانه وتعالى بالحقيقة والمعرفة من وعد الله تعالى في القرآن الكريم. فقال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).²⁰⁷

من جاهد في إقامة الشريعة والطريقة فهدى الله تعالى بالحقيقة والمعرفة. سئل أبو بكر الزاهر أباضي عن المعرفة، فقال: "المعرفة اسم ومعناه وجود تعظيم في القلب يمنعك عن التعطيل

²⁰⁵ ابن عجيبة. إيقاظ المهمم ج، 1، ص: 316.

²⁰⁶ سورة آل عمران: 190 - 191.

²⁰⁷ سورة العنكبوت: 69.

والتشبيه". سئل أبو علي الروذباري عن التوحيد، فقال : "التوحيد استقامة القلب بآثبات ومفارقة التعطيل وانكار التشبيه".²⁰⁸

قال الإمام القشيري : "أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة".²⁰⁹

وهذا الإمام الشعرائي - رحمه الله تعالى - يتحدث عن إكرام الله تعالى للصوفية الذين ساروا على نهج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من أمثال معاذ - رضي الله عنه - فيقول : "اعلم يا أخي أن علم الصوف عبارة عن علم انقذ في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بهما انقذ له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق، تعجز الألسنة عنها، نظير ما انقذ لعلماء الشريعة من أحكام، حين عملوا بما علموه من أحكامها".²¹⁰

مؤلف كتاب الرسالة القشيرية الشيخ القشيري حيث ذكر أهل الطرق الصوفية بأنهم من أولياء الله سبحانه وتعالى المختارين،²¹¹ وقد فضلهم الله تعالى من سائر عباده بذكر الرسول - صلى

²⁰⁸ القشيري. الرسالة القشيرية. ص : 32.

²⁰⁹ القشيري. نفس المرجع. ص : 24.

²¹⁰ طه عبد الباقي سرور. 1952م. التصوف الإسلامي والإمام الشعرائي. مصر. دار غنضة للطباعة والنشر. ص : 7.

²¹¹ ذكر الأولياء المتصوفون أن عدم ثبوت العلم في القلب إلى درجة التمكين. يقتضي إلى أن زلة العقيدة أمر ممكن. ظلت أقدام طائفين

عن مجرى التحقيق. S.M.N al-Attas. 1986. A commentary on the Hujjat al-Siddiq of Nur al-Din al-Raniri. Kuala Lumpur. ص: 431.

الله عليه وسلم - والمتصوفون الذين ذكرهم القشيري في كتابه من كبار علماء التصوف. وبدأ الكتاب بتصريح عقائدهم السليمة وبيان توحيدهم، ومؤلفاتهم حيث تدل على ثبوت عقائدهم بأنها من العقائد السليمة. ثم ذكر القشيري موجز ترجمة حياة كل منهم، حيث صور تمسكهم بالسريعة في حياتهم. وأن قلوبهم أصبحت أمكنة أسرار الله تعالى وما خصهم الله به من نوره سبحانه وتعالى وهم من فيضان رحمة²¹² تعالى على مخلوقاته. وأن الحق سبحانه وتعالى قد رفع أرواحهم²¹³ بفضلهم وكرمهم، وطهرهم من أدناس البشرية وأوصلهم إلى مقام المشاهدة بالتحلي من حقائق الأحدية.²¹⁴ وأقامهم في مقام العبودية والمشاهدة بمجرى أحكام الربوبية²¹⁵ واستقاموا فيما كان عليهم من التقلب والتصريف، ورجعوا إلى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت التكميل²¹⁶

وقسم الشيخ الجنيد بن محمد البغدادي المتوفى سنة (299هـ) درجات التوحيد إلى ثلاث درجات تتمثل فيما يلي :

²¹² أي بناء على العقيدة السليمة يعنى على العلم الصحيح عن معرفة الله تعالى. الدكتور سيد محمد نقيب الأنصار. نفس المرجع. ص: 431.

²¹³ أحوال الروح بناء على المقامات والأحوال التي مر بها السالك في السير إلى الله سبحانه وتعالى. نفس المرجع. ص: 431.

²¹⁴ التحلي من حقائق الأحدية. فإن الموجود والجاري في عالم الشهادة بتقدير الله تعالى وضائه. فإن كل شيء في علمه تعالى بموجبه.

نفس المرجع. ص: 431.

²¹⁵ مجرى الأحكام الربوبية، بناء على سنة الله سبحانه وتعالى، وهي نعمة كبيرة من الله سبحانه وتعالى. فيعرفون صفات الله تعالى وأفعاله.

نفس المرجع. ص: 431.

²¹⁶ القشيري. الرسالة القشيرية. ص : 20.

الدرجة الأولى : توحيد العوام وهو اعتقاد العبد بوحداية الله سبحانه وتعالى وأن لا معبود سوى الله تعالى لكن قلبه مازال فيه رغبة ورهبة بغيره سبحانه وتعالى، وقال الغزالي : توحيد العوام أن يقول الإنسان "لا إله إلا الله" مع التصديق بقلبه بما ينطق به لسانه. لكن هذا التصديق القلب حصل للمرء عن طريق التقليد.²¹⁷

الدرجة الثانية : توحيد أهل الظاهر، وهو الإعتقاد بوحداية الله سبحانه وتعالى وأن لا معبود مما سوى الله تعالى، بامتنال أو امره واجتناب نواحيه ظاهرا وفي قلبه مازال فيه الرغبة والرهبة. الدرجة الثالثة : توحيد الخواص وفيه مرتبتان، المرتبة الأولى : الاعتقاد بوحداية الله بتطبيق الشريعة ظاهرا وباطنا وإزالة الرغبة والرهبة بسوى الله. والمرتبة الثانية : وصول العبد إلى حالة كأنه شبه أمام الله وحده لا شريك له.²¹⁸ فنستفيد مما سبق بيانه بأن علماء الصوف يهتمون بعلم العقيدة السليمة للسالك حتى يواصل طريقه إلى الله تعالى بعيدا عما يبطئ عقيدته.

²¹⁷ الغزالي. إحياء علوم الدين. ص : 3059. الدكتور فيصل بديرعون. 1983م. التصوف الإسلامي الطريق والرجال. مكتبة سعيد

رافت. ص: 216.

²¹⁸ عفيفي. الدكتور أبو العلا عفيفي. 1963م. التصوف والثورة الروحية في الإسلام. القاهرة. دار المعارف. الطبعة الأولى. ص : 163.

الفصل الثالث : الطريقة الصوفية في ضوء الشريعة

لا تصح الطريقة الصوفية بدون الشريعة، بمعنى أن الطريقة بدون الشريعة لن توصل إلى الله تعالى، فإن قيل الجهلاء : إن الطريقة بدون الشريعة توصل إلى الله تعالى، لأن مرتبتها أعلى، فلا تحتاج إلى الشريعة، فإن الشريعة بمثابة القشرة، فهي خاصة للعوام من الناس. أما الطريقة للخواص الذين هم براء عن الشريعة.

فمثل هذه الشبهة باطلة، فهي صادرة من الجهلاء الذين لا يعرفون الطريقة الصحيحة. وإنما ييئسوها لهدم الإسلام فتتولد جماعة من المسلمين، فهم الذين يمزقون الشريعة، فيحلون الحرام ويحرمون الحلال فتمزق المسلمون.

كما قيل بأن الطريقة الصوفية ليست من شريعة الإسلام رغم أن الرواية قالت بأن فقيهه اشتهر اجتهداته واعترف جميع العلماء المعبرين بفقته وكان يعرف بابي حنيفة هو النعمان بن ثابت وكنيته أبو حنيفة أحد الأئمة الأربعة، أشهر من أن يذكر، توفي في بغداد سنة (150هـ) وكان بعض العلماء المشهورين قد أخذ منه بيعة الطريقة مثل الشيخ سري السقطي، ومعروف الكرخي وغيرهما كثير كما نقل الفقيه الحنفي الحصكفي صاحب الدر : أن أبا علي الدقاق - رحمه الله تعالى - قال : "أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أبادي، وقال أبو القاسم : أنا أخذتها من الشبلي، وهو من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو

من داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة -رضي الله عنه-، وكلّ منهم أثنى عليه وأقر بفضله".²¹⁹

وقد سبق أن تجد علاقة بين الطريقة الصوفية مع الشريعة واشتمل على الجانبين، جانب الطريقة وجانب الشريعة فالطريقة وسيلة إلى الحقيقة. فلا بد للطريقة من الطريق الحق المستقيم الذي يوصل السالك إلى الهدف. وحقيقة هذا الطريق هي الوحي من الله تعالى، وهو القرآن الذي أنزل على محمد النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّنه بأقواله وأفعاله وسكوته وأحواله. فالقرآن والسنة شريعة في تعريفها العام الأصلي.

قال السرهندي المتوفى سنة (1349هـ) في العلوم التي تأتي من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منقسمة إلى قسمين: العلم بالأبدان وعلم القلوب ويقال لعلم الأبدان (الشريعة) ويتعلم هذه العلوم من كتب الفقه والكلام والأخلاق ويقال لعلم القلوب (المعرفة والفيض) ويجري الفيض والمعرفة إلى قلوب الناس من قلوب الأولياء".²²⁰

²¹⁹ ابن عابدين. رد المختار على الدر المختار حاشية ابن عابدين. بدون التاريخ. ترجمة العلامة عبد القادر بن مصطفى اليساري الرافعي. محمد أمين بن عمر عابدين. بيروت. دار إحياء التراث العربي. ج1، ص: 43. حاشية ابن عابدين وهو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي فقيه الديار الشامية وإمام الحنفية في عصره، له من التأليف (رد المختار على الدر المختار) في خمسة مجلدات يعرف بحاشية ابن عابدين، وله رفع الأنظار عما أورده الحلبي على الدر المختار، والعقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية جزآن، ونسمات الأسحار شرح للنار، ومجموعة الرسائل.. مولده ووفاته في دمشق سنة (1252هـ - 1198هـ).

²²⁰ السرهندي. الفاضل الأجل محمد حسن جان صاحب السرهندي المجددي الفاروقي. 2002م. طريق النجاة من الإفاضات العالية. تركيا. مكتبة الحقيقة بشارع دار الشفقة. ص: 170.

فبناءً على هذا التعريف العام، فالشريعة هي دين الإسلام نفسه، لأن الشريعة كل ما جاء من الله سبحانه وتعالى وكل ما في الإسلام، ومصدرها هو الوحي يعني القرآن وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتضمن أحكام الفقه والعقيدة والأخلاق والإحسان وغيرها.²²¹

كما قال الجنيد بن محمد البغدادي المتوفى سنة (299هـ) : "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه".²²²

فقد قال أبو محمد سهل بن عبد الله التستري المتوفى سنة (273هـ) عن الأسس السبعة للطريقة الصوفية يقول : "أصلنا"²²³ سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى، والإقتداء بسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق".²²⁴

وقال صاحب كشف الظنون : "علم الشريعة وما يتعلق بإصلاح الظاهر بمنزلة العلم بلوازم الحج. وعلم الطريقة وما يتعلق بإصلاح الباطن بمنزلة العلم بالمنازل ودرجات الطريق. فكما أن مجرد علم اللوازم، ومجرد علم المنازل لا يكفيان في الحج الصوري بل دون إعداد اللوازم

²²¹ الدكتور يوسف موسى. 2009م. مدخل الدراسة الفقه الإسلامي. دار الفكر العربي. ص : 9.

²²² القشيري. الرسالة القشيرية. ص : 79. السلمي. طبقات الصوفية. ص : 159.

²²³ أي الطريقة أو التصوف.

²²⁴ السلمي. طبقات الصوفية. ص : 210.

وسلوك المنازل، كذلك مجرد العلم بأحكام الشريعة وآداب الطريقة لا يكفيان في الحج المعنوي، بدون العمل بموجبيهما".²²⁵

فظهر من هنا أن العلاقة بين الطريقة الصوفية والشريعة وثيقة جدية ولا تنفكان. كما قال الإمام مالك -رضي الله عنه- المتوفى سنة (179هـ) يقول: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".²²⁶

وكما ذكره الإمام الصوفية أحمد زروق -رحمه الله تعالى- المتوفى سنة (899هـ) وقال: "لا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه لله تعالى، ولا هما (التصوف والفقه) إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما دونه. فلزم الجميع لتلازمها في الحكم، كتلازم الأجسام للأرواح، ولا وجود لها إلا فيها، كما لا حياة لها إلا بها، فافهم".²²⁷

فظهر مما سبق بيانه أن مثل الشريعة مع الطريقة كعلاج المرض الذي أصيب بأمراض ورعايته. فالشريعة كتب المراجع التي فيها معلومات عن كيفية التعامل مع المرضى والطريقة تطبيق ما

²²⁵ حاجي خليفة. 2008م. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. تحقيق محمد شرف الدين يالتقايا. دار إحياء التراث العربي. ج، 1. ص: 4.

²²⁶ الإمام ملا علي القاري. دون التاريخ. شرح عين العلم وزين الحلم. دار المعرفة للطباعة والنشر. ج، 1. ص: 33.

²²⁷ أحمد زروق. قواعد التصوف. قاعدة، 3. ص: 3.

في تلك الكتب من كيفية التعامل مع المرضى، ولن تصل الطريقة إلى الحقيقة إذا ضيع السالك فرائض الشريعة، والشريعة في تعريفها الأساسي العام كمثل الدائرة، والخط الدائري المنهجي هو الشارع أو البوابة العامة التي دخل عليها كل الناس. ونقطة المحور للدائرة هي الحقيقة. وما بين الخط الرسمي للدائرة ونقطة المحور هو الطريق الخاص أو الطريق إلى الحقيقة.

فتبين من هذه الصورة بأن الشريعة تشمل الطريقة. فالشريعة بوابة عامة لكل السالك إلى الله، أما الطريقة فهي باب الطريق الخاص أو الأخص الموصل إلى الله تعالى. فتبين أن الطريق الخاص أو أخص الموصول إلى الله تعالى لا تخرج عن الخط الرسمي لدائرة الشريعة.

وأيضاً مثل المتصوفون بأن الشريعة أساس البناء، كل المباني القوية في ممر الأزمان لا بد من أساس قوي متين. فكل جزء من البناء من تحتها إلى قمته يحتاج إلى الأساس. فالشريعة عبارة عن الأساس لا يجوز تركها وإن وصل السالك إلى نهاية الطريق.

وقال أبو يزيد البسطامي -رحمه الله تعالى- المتوفى سنة (234هـ) "لو أن رجلاً بسط مصلاه على الماء وتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى ينظروا كيف تجددوني الأمر والنهي".²²⁸

²²⁸ الطوسي. أبي نصر السراج الطوسي. 1960م/1380هـ. اللمع. تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور. مصر. دار الكتب الحديثة. ص : 400.

وكذلك قال شيخ الصوفية الإمام الجنيد - رحمه الله تعالى - : "لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجددونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة".²²⁹

وتبين عند المتصوف الذي سلك الطريق إلى الله سبحانه وتعالى بطريقة خاصة أو عن الطريقة الصوفية أهمية الشريعة وحاجته إليها وإلى معرفتها. بل الأعظم ممن اقتصر نظره إلى الشريعة على جانب الظاهر فقط. ذلك لأن المتصوف لا يقدر الشريعة ويتدبرها من جانب الظاهر فقط بل ومن الجانب الباطني أو الروحاني أيضا.

ومما يجب على المتصوف تطبيق الشريعة. وذلك لأن ما هو الأشمل أو ما بالفوق يتضمن ما هو أصغر أو ما بالتحت. وما قيل بأن الشريعة غير مهم يضيق أعمال التصوف المستنبطة من الشريعة وهو مردود. فمن قال هذا الرأي فهو معرض للشك في تصوفه. وإذا كان الشخص الذي لا يتمسك بشريعة الله الصحيحة فلا يدعى بالدين بل يدعى بالشخص دنيوي، فكذلك من ينفي الشريعة. فلا يدعى بالمتصوف.

ونستخلص مما سبق بيانه بأن الطريقة لا تنفك عن الشريعة أبدا. فالشريعة ميزان لاستقامة كل سالك الطريقة. وبدون الشريعة بطل الطريقة بل انحرف عما قصد من دين الإسلام،

²²⁹ القشيري. الرسالة القشيرية. ص : 16.

والعلاقة بين الطريقة والشرعية هي التي تفرق بين الطريقة الصوفية والمذاهب الباطنية في الأديان الأخرى.

الفصل الرابع : الصلة بين الشريعة والطريقة والحقيقة

فما سبق بيانه من تعريف الطريقة، ومضمونها، ومصادرها يكفي دليلا على أهمية الطريقة في الإسلام. ولتعميق ثبوت مكانتها وأهميتها مفصلا، فسنفصل الرأي والميزان الصحيحين. فسنعود مرة ثانية إلى حديث جبريل السابق، وذلك حين سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ثلاثة أمور، الإيمان والإسلام والإحسان.

أما عن كل أسئلة جبريل التي وجهها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد أجاب كلا منها. وفي أجوبته بيان عن الدين وعن الإيمان وذلك بذكر أركانه الستة، وعن الإسلام بذكر أركانه الخمسة. وعن الإحسان فقال عليه السلام : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.²³⁰

مصدقا لحديث جبريل أجمع العلماء على أن كمال دين الإسلام على ثلاثة أسس : الإيمان والإسلام والإحسان. فإذا عرفنا الإحسان كما بينه النبي - صلى الله عليه وسلم - نستطيع

²³⁰ أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان. ابن حنبل في مسنده في باب الإيمان والإحسان. ج، 1. ص : 64.

أن نقول بأن الإحسان ترقية الإيمان والإسلام والنقاط الجامع بينهما في تطبيقهما حتى إلى الدرجة الأعلى أو الكاملة. فإذا وصل الإيمان والإسلام إلى درجة الإحسان فقد وصلا إلى الحقيقة. والطريقة هي التي توصل الإيمان والإسلام (الشريعة) إلى درجة الإحسان والحقيقة.

وفي ربط العلاقة بين الشريعة، والطريقة والحقيقة ذهب بعض العلماء إلى أن هذه العناصر الثلاثة تتعلق بالدين يعني الإسلام والإيمان والإحسان.²³¹ ويمكن توضيح هذه العلاقة بما يلي:

1. الإسلام : أي الأعمال الشرعية، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشريعة واختص بدراسته السادة الفقهاء.
2. الإيمان : أي الاعتقادات، وقد اختص بدراسته السادة علماء التوحيد.
3. الإحسان : يعني السلوك، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة، واختص ببحثه السادة الصوفية.

الشريعة كفيلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية، أن الطريقة والحقيقة خادمة للشريعة.²³²

²³¹ الكندهلوي. الشريعة والطريقة. ص : 103.

²³² الكندهلوي. المرجع السابق : ص : 103.

ولتوضيح العلاقة بين الشريعة والطريقة والحقيقة ونأتي لذلك مثلاً من الكتاب ختم الأولياء :

"طهارة الشريعة بالماء، وطهارة الطريقة بالتخلية عن الهوى، وطهارة الحقيقة خلوة القلب عما سوى الله تعالى، صلاة الشريعة بالأذكار صلاة الطريقة بالاغلاخ عن الأكوان والتوجه، بالكلية إلى الرحمن، واستفراغ بذات المناجاة، في كل زمان ومكان".²³³

وعند ابن عابدين -رحمه الله تعالى- في حاشيته المشهورة (برد المختار)، بناء على رأي شيخ الإسلام العراقي زكريا بن محمد الأنصاري المتوفى سنة (926هـ)، يقول : "الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين من قطع المنازل، والرفي في المقامات. فالحقيقة : هي مشاهدة الربوبية بالقلب، ويقال : هي سر معصى لا حد له ولا جهة، وهي الطريقة والشريعة متلازمة لأن الطريق إلى الله تعالى لها ظاهرون وباطنون، فظاهرها الشريعة والطريقة، وباطنها الحقيقة. فبطون الحقيقة في الشريعة والطريقة، كبطون الزبد في لبنه، لا يظفر من اللبن بزبد بدون مخضه، والمراد من الثلاثة (الشريعة، والطريقة، والحقيقة) إمامة العبدية على الوجه المراد من العبد".²³⁴

²³³ الترمذي. ختم الأولياء. ص : 476.

²³⁴ ابن عابدين. رد المختار على الدر المختار حاشية ابن عابدين. بدون التاريخ. ترجمة العلامة عبد القادر بن مصطفى اليساري الرافعي.

محمد أمين بن عمر عابدين. بيروت. دار إحياء التراث العربي. ج: 3، ص: 3، إبراهيم حلمي القادري. 1962م. منارج الحقيقة في

الرابطة عند أهل الطريقة. ص : 12.

ويفهم مما قاله الشيخ ابن عابدين -رحمه الله- بأن الشريعة، الطريقة والحقيقة مما أو جبه الله تعالى للوصول إلى المعرفة أو العبودية المطلقة. ويحتاج السالك كلهم للحصول على ما قصده من فضل الله تعالى.

ويقول الشيخ عبد الله اليافعي -رحمه الله تعالى- : "إن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية. ولها طريقة هي عزائم الشريعة، فمن سلك الطريقة وصل إلى الحقيقة. فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة، ونهاية الشيء غير مخالفة له، فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة".²³⁵

وقال صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم التصوف يقال : "علم التصوف علم الحقيقة أيضاً، وهو علم الطريقة، أي تكملة النفس عن الأخلاق الرديئة، وتصفية القلب عن الأغراض الدنية. وعلم الشريعة بلا علم الحقيقة عاطل، وعلم الحقيقة بلا علم الشريعة باطل".²³⁶

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى (1973م) : "إن حقيقة طريق القوم علم وعمل، سداها ولحمتها شريعة، وحقيقة، أي أحدهما شرط".²³⁷

²³⁵ اليافعي. عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي. 1957م. نشر المحاسن الغالية في فصل مشايخ أصحاب المقامات العالية، ص 1.

سعود. نشر المحاسن الغالية. ج 1، ص : 1.

²³⁶ حاجي خليفة. 2008م. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. تحقيق محمد شرف الدين بالتقايا. دار إحياء التراث العربي.

ج 1، ص : 4.

²³⁷ الشعراني. لطائف المنن والأخلاق. ج 1، ص : 25.

وذكر الشيخ نجم الدين الكبرى المتوفى سنة (618هـ) أهمية العلاقة بين الشريعة والطريقة والحقيقة فقال : "الشريعة كالسفينة، والطريقة كالبحر، والحقيقة كالدر، ومن أراد الدر ركب في السفينة ثم شرع في البحر ثم وصل إلى الدر. فمن ترك هذا الترتيب لم يصل إلى الدر".²³⁸

ومما سبق بيانه وأيضاً ما قاله الشيخ نجم الدين ظهر لنا مدى أهمية الطريقة في التصوف، فنفهم بأسرع نظر مدى أهمية الطريقة حيث كانت وسيلة أو طريقة أو صراط توصل بين الشريعة والحقيقة. فعلى هذا، فبدون الطريقة كانت الشريعة غير كاملة، كما أن الشريعة بدون الحقيقة كالجميد بدون الروح. وقد تكلم ابن عطاء الله المتوفى سنة (709هـ) في الحكم، فقال :

"الأعمال صور قائمة، وأرواحها لا تتحرك، والإخلاص في الأعمال هنا عبارة عن الحركة الجسمانية أو القلبية والصور جمع صورة وهو ما يتشخص في الذهن من الكيفيات والروح السر المودع في الحيوانات".²³⁹

إن مكانة (الطريقة أو التصوف) والشريعة والحقيقة كتلازم الأجسام للأرواح،²⁴⁰ يعني أن الإخلاص في العمل الصالح لا ينال بسهولة، فإن الإخلاص الصحيح ليس مجرد العزم في القلب بأن العمل لله وحده. لكن المرید ينال الإخلاص إذا أدى العمل بالمشاهدة، فيشعر

²³⁸ الترمذي. ختم الأولياء. ص : 574.

²³⁹ ابن عجيبة. إيقاظ الهمم. ج، 1. ص : 143.

²⁴⁰ أحمد زروق. قواعد التصوف. قاعدة، 3. ص : 3.

قلبه بأنه إنما أدى العمل بالله ومن الله وإلى الله. وللحصول على درجة الإخلاص فعليه بالطريقة. فبدونها فلا تعطى الشريعة المنفعة المقصودة. فإنها كالجسد بلا روح.

ونستخلص هنا مكانة الشريعة والطريقة والحقيقة وهو كالتالي :

1. الشريعة : علامة فهي الحكم الذي يجب طاعته على كل من سلك صراط المستقيم. فيسمى هذا النظام بالشريعة.
 2. الطريقة : من سلك على الطريق بالشريعة، مطيع للحكم ونظام الشريعة. يعني أن الشريعة تعطي هديلاً وإرشاداً للسعي إلى ما هو أكمل بالاعتماد على هدي الشريعة. فالطاعة والخضوع بجميع إرشادات الشريعة وهديتها هي العمل بالطريقة.
 3. الحقيقة : الهدف والمقصود من الطريقة.
- وكيف تخالف الشريعة والطريقة والحقيقة وهي إنما نتجت من تطبيقها. الشريعة هي الأساس. والطريقة هي الوسيلة والسيرة المختصة بالمحالين من قطع المنازل والترقي في المقامات.²⁴¹
- الطريقة والشريعة متلازمة. والحقيقة هي الثمرة ومشاهدة النبوية بالقلب.

²⁴¹ ابن عابدين. حاشية، ج3، ص : 303.

الفصل الخامس : الطريقة وعلاقتها بالذكر الله

كثير من المسلمين بأن الطريقة ليس من تعاليم دين الإسلام وأنها غير موجودة في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- سواء من ناحية العلم أو العمل. فتطورت الشبهات التي وجهت إلى الطريقة، وإضافة على ذلك علق الطريقة بالمذاهب الفاسدة أو التعاليم الباطلة. فيتوهم الناس وقالوا بأن الطريقة ضالة وفاسدة قبل أن يتعمقوا عنها بسبب جهلهم، فترك كثير من الناس الطريقة وخافوا منها.

الواقع أن إحدى أسس الطريقة ذكر الله تعالى للوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى. كما صرح به ابن عجيبة في كتابه "الفتوحات الإلهية" عن علاقة الطريقة مع ذكر الله بقوله : كان طريق التصوف من دخل بها حيت روحه بمعرفة الله، وطابت حياته بذكر الله، فعاش عيشة طيبة، قال تعالى : (مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَسَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً).²⁴² فالحياة الطيبة هي الغنى بالله.²⁴³

وقد عرفنا أن ذكر الله عمل أساسي في الطريقة الصوفية. فالعلاقة بين أحدهما مع الآخر قريبة. سواء كانت من جانب نوع الذكر أو كيفية عليقه. وقد علم الله سبحانه وتعالى كلا

²⁴² سورة النحل : 97.

²⁴³ ابن عجيبة. الفتوحات الإلهية. ص : 345.

من نوع الذكر في الطريقة وكيفية تطبيقها من خلال قوله عز وجل في سورة آل عمران²⁴⁴،

وسورة النساء : (فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ

فَأَقِمْو الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا).²⁴⁵

لقد بينت الآيات أن الذكر الذي علمه الله سبحانه وتعالى هو بذكر ذاته سبحانه وتعالى

(الله).²⁴⁶ وكيفيات الذكر يمكن أداؤها قعودا وقياما. وبعد الذكر يتبع بالتفكر في خلقه

سبحانه وتعالى.

وأما الدليل من الحديث الذي يدل على كيفية الذكر التي علمها الرسول على أصحابه بطريقة

خاصة أو فردي، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : يا علي، عليك بدوام ذكر الله

عز وجل، سرا وجهرا. فكيف أذكر؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : أغمض عينيك

وأسمع مني ثلاث مرات، ثم قل أنت "لا إله إلا الله" ثلاث مرات، وأنا أسمع، فقال رسول الله

-صلى الله عليه وسلم- ثلاث مرات "لا إله إلا الله" معمضا عينيه رافعا صوته وعلي -رضي

²⁴⁴ سورة آل عمران : 191.

²⁴⁵ سورة النساء : 103.

²⁴⁶ انظر سورة آل عمران : 191. سورة الجمعة : 9-10. سورة النساء : 103. سورة الأنفال : 45. سورة الأحزاب : 41، 35. سورة

الرعد : 198. سورة الأعراب : 45. سورة النور : 37. سورة المنافقون : 9.

الله عنه- يسمع، ثم قال علي -رضي الله عنه- : "لا إله إلا الله" ثلاث مرات مغمضا رافعا

صوته والني -صلى الله عليه وسلم- يسمع.²⁴⁷

ومن أساليب الذكر التي عملها مشايخ الطرق الصوفية على تلاميذه الذكر القلبي بذكر ذاته سبحانه. وقد بين الإمام الغزالي بهذا الأسلوب في كتابه إحياء علوم الدين، فقال في باب الإلهام : ويلزم في الخلوة قول : "الله.. الله.. الله.." على الدوام، مع حضور القلب، إلى أن ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان، ويرى كأن الكلمة جارية على اللسان، ثم يصير على ذلك إلى أن ينمحي أثرها على اللسان، فيصادف قلبه مواظبا على الذكر، ثم يواظب إلى أن ينمحي من القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه، حاضرا فيه، كأنه لازم لا يفارقه.²⁴⁸

ومن هنا نفهم أن الذكر في الطرق الصوفية إحدى الأعمال التي أمر بها القرآن وحديث النبي - صلى الله عليه وسلم- حيث يبدأ الذكر بذكر أسماءه مع التذكر الذي اصطلح بالمراقبة.

ويزيد فهمنا عن ذكر الله، عندما ننظر بصيغة المستقبل من حيث النوع والكيفية فإن الله قد ذكرهما في الآية السابقة. فكيف بما جرى من ممارسة ذكر الله؟ إن أول من أدى بذكر الله وممارسته هو الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم علمه إلى أصحابه كما دل عليه الحديث

²⁴⁷ رواه الطبراني والبخاري بسند حسن. الشعرائي. الأنوار القدسية. ص : 27.

²⁴⁸ الغزالي. إحياء علوم الدين. باب الإلهام.

السابق، بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- علم لسيدنا علي -كرم الله وجهه- ثم علم سيدنا علي للتابعين وهكذا حتى إلى عصرنا هذا.

والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى ذكر أوصاف أولي الألباب من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وذكرهم بوجه خصوص في نفس سورة -أي سورة آل عمران-، فقال تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).²⁴⁹

والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر أولي الألباب، ست عشرة مرة، وذكر أوصافهم في سورة الرعد، قول الله عز وجل : (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ).²⁵⁰

فنفهم بوضوح من دليل القرآن والحديث أن نكرم الله وفضيلة أداءها قال أمر الله بهما رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- ثم علمه الرسول إلى أصحابه ثم علموها إلى التابعين، مثل الإمام أبي حنيفة. وهكذا حتى إلى مشايخ الطرق الصوفية في هذا العصر.

²⁴⁹ سورة آل عمران : 190.

²⁵⁰ سورة الرعد : 19-22.

وذكر الله يتضمن معنى تذكر الله أسماء الله تعالى.²⁵¹ وبجانب ذكر أسماء ذاته سبحانه وتعالى

هنا الأدلة من القرآن دلت على قاعدة ذكر الله. ومنها ذكر أسمائه كما في سورة النور، قال

تعالى : (فِي نُفُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ).²⁵²

وتؤدي عملية ذكر الله عادة مع الأعمال الأخرى كالاستغفار والتحميد والتكبير والتهليل.²⁵³

وقراءة آيات من القرآن الكريم والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- والدعاء والمناجاة

والتفكير والتعقل والتذكر والصلاة المسنونة وصلاة التوبة والحاجة والصوم وقلة الشرب والنوم

والكلام وغيرها مما أمر به القرآن والحديث.

وإن كثير لفظ "ذكر الله" في القرآن الكريم، كقول عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ

ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا).²⁵⁴ وقوله صل وعلى أيضا : (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا

بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ).²⁵⁵

²⁵¹ انظر سورة المزمل : 8. سورة آل عمران : 41. سورة الدهر : 25. سورة النقرة : 114. سورة النور : 36.

²⁵² سورة النور : 36.

²⁵³ أخرجه الحاكم عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: (إِنَّا لَعِنَدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذْ قَالَ : ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ففعلنا، فقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : اللَّهُمَّ إِنَّكَ بِحَشَنِي بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَأَمَرْتَنِي بِهَا وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهَا الْجَنَّةَ، إِنَّكَ لَا تَحُلِفُ الْمِيعَادَ، ثُمَّ قَالَ : أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ). السيوطي. الإمام جلال الدين بن محمد السيوطي. 1403هـ/1983م. الخاوي للفتاوى للإمام

السيوطي. مصر. دار الكتب الأزهرية. ج، 1. ص: 391.

²⁵⁴ سورة الأحزاب : 41- 42.

²⁵⁵ سورة النور : 37.

ومن الحديث كما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (إن الملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى محبتكم، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا).²⁵⁶ والحديث عن أبي الدرداء أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأرضاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟) قالوا وما ذاك يا رسول الله؟، قال ذكر الله. وقال معاذ بن جبل ما عمل امرئ بعمل أنجي له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله).²⁵⁷

فعلى ذلك فذكر الله من العبادة التي أمر الله بها، قيمتها عالية لعاملها. إضافة على ذلك فإن ذكر الله شفاء ناجح للنفس لأنه يتضمن على ذكر أسماء الله والتذكر به.

وقد اتضحت الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال علماء عن العلاقة بين الطريقة الصوفية وذكر الله. فهو الذكر الذي أمر الله بها، وأول من عمل بذكر الله هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نفسه، ثم عمل به أصحابه -صلى الله عليه وسلم-، والعلاقة بين ذكر الله والطريقة وثيقة وقريبة. ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه قد استخدموا مصطلح

²⁵⁶ رواه البخاري في صحيحه كتابه الدعوات. الدكتور مصطفى دياب. 1987م. الجامع الصحيح المختصر صحيح البخاري. بيروت. دار ابن كثير. ج، 6. رقم : 6045. رواه مسلم في صحيحه في باب ذكر الله. مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن وريث.

الجامع الصحيح المسمى صحيح المسلم. بيروت. دار الجيل/الأفق. رقم : 7015.
²⁵⁷ ابن ماجه. الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني. سنن ابن ماجه. الرياض. دار السلام. رقم : 3780. ورواه الترمذي في كتاب الدعاء في باب فضل الذكر. الترمذي. محمد بن عيسى بن مؤثرة بن موسى بن الضحاك. سنن الترمذي. رقم : 3299.

الطريقة. و قد بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تعريف الطريقة كما رواه سيدنا علي - كرم الله وجهه- وذكره الشيخ يوسف الأعجمي شيخ الطريقة التي سلسلته صحيحه في رسالته، واتصل سنده إلى سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : (قلت يا رسول الله، دلي على أقرب الطرق إلى الله عز وجل وأسهلها على العباد، وأفضلها عند الله تعالى).²⁵⁸

فلفظ "الطرق" في الحديث جمع التكسير للطريقة، ولذلك قصد سيدنا علي - كرم الله وجهه- رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى يعلمه إحدى الطرق الأقرب الموصول إلى الحقيقة وإلى معرفة الله. وظهر من سؤال سيدنا علي - كرم الله وجهه- ومن جواب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنه وجود مصطلح الطريقة وتعريفه وهو ذكر الله. فأساس الطريقة الصوفية في الأمة الإسلامية هو دوام الذكر، فهذه هي علاقة وثيقة بين الطريقة الصوفية وذكر الله. وقد اتضح أن من بين العلوم والأعمال التي شرعها الله سبحانه وتعالى ذكر الله. ولا يجوز أن يشك في وجود ذكر الله في الإسلام لا سيما أن يرد أو يفتي كالأعمال التي عملها المتصوفون في الطريقة.

²⁵⁸ رواه الطبراني والبخاري بسند حسن. عبد الوهاب الشعراني. الأنوار القدسية. ص: 27.

المبحث الأول : الأمر بالذكر

عديدة من آيات القرآن الكريم تبين الأمر بذكر الله وكيفية الذكر وفضائله، والذاكرين وصفاتهم. وأيضا آيات تدل على وعيد الله على الغافلين عن ذكر الله وغيرها من الآيات التي لها علاقة مع ذكر الله تعالى. وكل الآيات عن ذكر الله تعالى من شريعة الله سبحانه وتعالى، ومن هذه الآيات قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا).²⁵⁹ وقوله تعالى : (وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا).²⁶⁰ وقوله تعالى : (وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا).²⁶¹ وذكر الله الذي أريد من هذه الآيات الثلاثة وهي التسييح والتهليل والتكبير والازمنة الذكر²⁶² بذكر أسماء الله وتذكره وغيرها.

وذكرت كلمة الذكر في القرآن لمعان ومقاصد غير ذكر أسماء الله سبحانه وتعالى وتذكره، مثل قوله تعالى في سورة الجمعة حيث ذكر فيها ذكر الله ويراد به صلاة الجمعة وذلك لقرينة تدل على ذلك وهي قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).²⁶³ وكذلك قوله تعالى في سورة الحجر : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، ذكر فيها كلمة (الذكر) ويراد به

²⁵⁹ سورة الأحزاب : 41 - 42.

²⁶⁰ سورة الإنسان : 25.

²⁶¹ سورة المزمل : 8.

²⁶² الغزالي. جواهر القرآن. ص: 28.

²⁶³ سورة الجمعة : 9.

"القرآن" لوقوعه بعد كلمة (نَزَّلْنَا)،²⁶⁴ وأيضاً في سورة النحل : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)، كلمة (الذِّكْرِ) هنا يراد به

"العلم".²⁶⁵

فاستخدام كلمة ذكر الله والذكر في القرآن لمعان مختلفة لا يدل على أن الله تعالى لم يشرع ذكر الله حتى نقول أنه لا يجوز التهليل والتحميد والتسبيح والتكبير وذكر أسماء الله وتذكره. رغم ذلك فإنه لا يجوز أن يقال لمن صلى وقرأ القرآن وحج وتصدق بأنه قام بذكر الله وتذكره، وفي قواعد اللغة إذا كانت الكلمة لها معان مختلفة فإنه انصرف إلى المعنى المشهور، وإلى غيره مع قرينة لفظية أو نحوية. كما في الآيات، قوله سبحانه : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا).²⁶⁶ فكلمة الذكر أو ذكر الله بمعنى ذكر الله حقيقة.

ومن هنا نستفيد أن ذكر الله في الطريقة مشروع. فمن صلى أو تصدق أو صام أو غيرها لا يعتبر أنه أدى بذكر الله التي أمر به. والذكر ذكر الله سبحانه تعالى ذكر الله مقارناً مع الصلاة في قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ حَاشُونَ).²⁶⁷ وقوله تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمْ

²⁶⁴ سورة الحجر : 9.

²⁶⁵ سورة النحل : 43.

²⁶⁶ سورة المزمل : 8.

²⁶⁷ سورة المائدة : 91.

الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ
كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا).²⁶⁸

والأمر بذكر الله بكرة وأصيلا بناء على وجوب ذكر الله على العبد، ولا شك في أن لكل أمره
سبحانه وتعالى أسباب وحكم. وهناك آيات تأمر الناس بذكر الله، وآيات تأمر الذين لا
يؤدّون بذكر الله. وفي الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يكونوا كالفاسقين حيث غفلوا عن ذكر
الله كما في قوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ)²⁶⁹ وكذلك نهي المؤمنين عن الغفلة. فوجوب الصلاة يجنب العبد عن الغفلة، فإن
الغفلة من الصفات المذمومة، قال تعالى: (وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)،²⁷⁰ فالغفلة من الصفات
المذمومة لأنها تنزل درجة الإنسان حتى أدنى من الأنعام كقول تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا
مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ هَآءَا وَهَآءَا هُمْ أَتَعْنُونَ لَا يُبْصِرُونَ هَآءَا وَهَآءَا لَا يَسْمَعُونَ
هَآءَا أَوْ لَيْكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ لَمَّا عَلِمُوا)²⁷¹ وبناء على الآيات القرآنية التي
تأمر المؤمنين بذكر الله تعالى كثيرا. أجمع العلماء على أن الذكر من المستحبات أو النوافل.

²⁶⁸ سورة النساء : 103.

²⁶⁹ سورة الحشر : 19.

²⁷⁰ سورة الأعراف : 205.

²⁷¹ سورة الأعراف : 179.

ورغم من ذلك فإنه قد يصير واجبا مسببا.²⁷² وذلك لأن من عرف نفسه بأنه سيسلم من المنكرات ظاهرا وباطنا بكثرة ذكر الله، وجب عليه ذكر الله تعالى. قد ذكر في الآية السابقة بأن من عرف بأن الغفلة لا تزول عن نفسه إلا بذكر الله، فهو واجب عليه.

قال العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره عند قوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى..) :²⁷³ إن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله تعالى، والمخلص من عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى، وأصحاب الدوق والمشاهدة يجدون من أرواحهم أن الأمر كذلك، فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله وأقبل على الدنيا وشهواتها، وقع في باب الحرص لزم هرب الحرمان، ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله ومعرفة الله تخلص من تيران الآفات، ومن حسرات الخسارات، واستشعر بمعرفة رب الأرض والسماوات.²⁷⁴

فلما كان ذكر الله سنة ويصير واجبا لسبب من الأسباب فإن موقفه ودوره مهم جدا، وبعض الصوفية يرى بوجوبه ويعلقه بركن من أركان الإسلام الخمسة. وهو النطق بالشهادتين. فلذلك فهو من أهم الأمور وأولاها وأفضلها. ووجوبه ليس لأنه يتعلق بركن من أركان الإسلام فقط

²⁷² أي واجب مسبب من قواعد أصول الفقه حيث قيل فيها بأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

²⁷³ سورة الأعراف : 180.

²⁷⁴ الرازي. الإمام محمد فخر الدين بن ضياء الدين عمر الرازي. 1985م/1405هـ. مفاتيح الغيب. بيروت. دار الفكر للطباعة والنشر.

ج، 4. ص: 472.

بل ولأنه يقوي الإيمان ويرقي على التوحيد فهمه حتى ترقى إلى درجة الحقيقة والمعرفة وأيضاً فإنه يحسن الصفات وحالة العبودية وغيرها.

وبينت الآية 41 من سورة الأحزاب. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا).²⁷⁵ وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله تعالى قائماً وقاعداً ومضجعاً.²⁷⁶

بأن المؤمنين أمروا بكثرة الذكر، وجوب الذكر مواز بمنافعه وثوابه الكثيرة. وعلى العكس فقد ذم الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين لا يذكرون الله إلا قليلاً وإذا قاموا إلى الصلاة يراءون الناس هم كسالى. قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا).²⁷⁷

²⁷⁵ سورة الأحزاب: 41.

²⁷⁶ محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي. 1301هـ/1933م. الفتوحات الربانية على الأذكار النبوية. القاهرة. جمعية النشر

والتأليف الأزهرية. ج1، ص: 106 – 109.

²⁷⁷ سورة النساء : 142.

وفي الحديث الذي رواه أبو داود ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون فيه الله إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة يوم القيامة).²⁷⁸

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة (656هـ) : من علامة النفاق ثقل الذكر على اللسان، فتب إلى الله تعالى يخفُّ الذكر على لسانك.²⁷⁹

المبحث الثاني : دور الذكر في تربية العمل

ولذكر الله دور في تغيير حالة العبد من الغفلة إلى اليقظة ثم إلى الحضور والغيبة. وأيضاً لها أثر قوي في الأعمال، فإن العمل يتحقق على النية. كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (الأعمال بالنية ولا مرئ ما نوى).²⁸⁰ ويقصد بالنية حركة القلب، فيشمل حركة القلب حين تحركت الجوارح بأداء الأعمال أولها وآخرها وكذلك قبل الأعمال وبعدها، فمن الصعب أن تكون حركة القلب صحيحاً إذا غفل القلب. وعلى العكس إذا كان القلب في يقظة وحضور سهل أن تنتج حركة القلب إلى جهات صحيحة وإلى حمد الله تعالى.

²⁷⁸ أخرجه أبو داود والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم. المنذري. الإمام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري.

1916م. الترغيب والترهيب. مصر. دار إحياء الكتب العربية. ج2، ص: 410.

²⁷⁹ ابن قدامة. أحمد بن قدامة المقدسي. 1981م/1301هـ. روضة الناظرين. بيروت. دار الكتب العلمية. ص: 44.

²⁸⁰ البخاري. الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. رقم : 52.

وعلى سبيل المثال، قسم الإمام الغزالي المتوفى سنة (504هـ) قال: إن الصوم على أربعة أنواع صيام العوام وهو الصوم عن الأكل والشرب والجماع، وصيام خواص العوام وهو هذا مع اجتناب الخمرات من قول أو فعل، وصيام الخواص وهو الصوم عن غير ذكر الله وعبادته وصيام خواص الخواص وهو الصوم عن غير الله فلا فطر لهم إلى يوم القيامة وهذا مقام عال.²⁸¹

يعني الصوم على ثلاثة أقسام: صيام العوام، وصيام الخواص، وصيام خواص الخواص. وهذا التقسيم لا يقتصر على الصوم فقط بل يشمل على الأعمال والعبادات الأخرى. فالعوام هم الذين قلوبهم غافلون، والخواص هم الذين قلوبهم في يقظة وخواص الخواص هم الذين قلوبهم في حضور،²⁸² فلن يخشع العوام في صلاتهم أما خواص الخواص فهم خاشعون في صلاتهم.

ويمكن أن يكون خواص الخواص هم الذين وصلوا إلى درجة الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ويمكن أن يكونوا "المحسين" أو "أولي الألباب" كما ذكر في سورة آل عمران²⁸³. وبين الله سبحانه وتعالى صفات أولي الألباب في سورة الرعد، وقال: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ حَقًّا هُوَ أَعْلَمُ إِنَّمَا يُفَكِّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ).

²⁸¹ العسقلاني. أبو الإمام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي. 1379هـ. فتح الباري شرح

صحيح البخاري. بيروت. دار المعرفة. ج، 4. ص: 109.

²⁸² أي دوام الذكر بالله وشهود روحهم وجه الله.

²⁸³ سورة آل عمران: 190-191.

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أَوْ لَكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ).²⁸⁴

فبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية فئة أولى الألباب هم الذين يتفكرون، ويؤدون بعهد الله سبحانه وتعالى، ويعتقدون بأنه "لا إله إلا الله"، ويخضعون لأحكام الله سبحانه وتعالى ويطبقونها، ويعلمون الناس بمعاملة حسنة، ويخافون الله سبحانه وتعالى يوم الحساب. ويصبرون ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، ويقىمون الصلاة، ويخرجون أموالهم بإخلاص، ويدفعون السيئات بالحسنات.

وعند ابن عطاء الله السكيتي الموفى سنة (709 هـ) أن من داوم ذكر الله والتفكر سيحصل رحمة من الله تعالى وفضله فترفع درجاته أو مرتبة ذكره حتى لا يذكر سوى الله. وقال : لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع

حضور يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة

عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز.²⁸⁵

الفصل السادس: الطريقة وعلاقتها بالخلوة

والخلوة نوعان الأول الخلوة من حيث الظاهر، وهي اختلاء السالك في بيت خال عن الناس.

الثاني من حيث الباطن في مشاهدة أسرار الحق، والظاهر في معاملة الخلق.²⁸⁶

وقال الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة (911هـ) في كتابه -تأييد الحقيقة

العلية وتشبيد الطريقة الشاذلية- بقوله: «لم يعهد لأحد من أئمة الطريق قديما ولا حديثا

عقد حلقة لتدريس مثل هذه الكتب وتقريرها، كما يقرر سائر العلوم، وإنما يأخذون المريد

بالخلوة والانفراد وملازمة العبادات والذكر والأوراد ومجاهدة النفس ونحوها من وظائفهم

المعروفة إلى أن يفتح الله عليه.²⁸⁷

²⁸⁵ ابن عجيبة. إيقاظ المهمم. ص: 316.

²⁸⁶ الكردي. تنوير القلوب : ص : 536.

²⁸⁷ السيوطي. الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي. 2006م. تأييد الحقيقة العلية وتشبيد الطريقة الشاذلية. تحقيق عاصم الكيالي. دار

الكتب العلمية. فصل: 35.

المجاهدة هي الجانب العملي في الحياة الصوفية، أو هي الجانب الديني والأخلاق فيها. والتصوف أو الطريقة في جوهره نظام ديني أخلاقي يأخذ به السالك نفسه في صراحة وعزم وتصميم. ولا يقوي عليه إلا أولو العزم والتصميم لأنه موجه ضد النفس ورغباتها والعالم ومباهجه. هو نظام محوره التضحية بالذات، وإيثار كل ما لله على كل ما للنفس. ومن هنا، كان النظام الأخلاقي الصوفي نظاما فريدا في بابه، مختلفا عن غيره من النظم الأخلاقية الأخرى لأنه قائم على معاملة الله وحده. تلك المعاملة التي يوحى بها مبدأ التضحية.²⁸⁸

وقال ابن الخلدون المتوفى سنة (809هـ) : أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن رنخرف الدنيا وزينتها، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة.²⁸⁹

كان من ألزم ما يلزم المبتدئ في الطريق الخلوة أو العزلة عن الناس لأن اختلاط الإنسان بني جنسه ألف ما تألفه النفس وتميل إليه بفتنة. وفي الخلوة بالنفس يستباحش من الخلق

²⁸⁸ عفيفي. الدكتور أبو العلا عفيفي. 1963م. التصوف والثورة الروحية في الإسلام. القاهرة. دار المعارف. الطبعة الأولى. ص: 142-143.

²⁸⁹ ابن الخلدون. مقدمة. ج، 1. ص: 582. انظر عبد القادر عيسى. حقائق التصوف. ص: 205.

واستثناس بالله. ولما كان أصل المجاهدة وملاكها كما يقول القشيري في رسالته : فطم النفس عن المألوفات وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات.²⁹⁰

إذن الخلوة في الطريقة تكون المجاهدة في أول أمرها لأن المجاهدة والجهاد في الأصل بذل الوسع في سبيل الله ومحاربة أعدائه. ثم استعلت المجاهدة في التصوف بمعنى محاربة النفس ومخالفتها باعتبارها العدو الأول الذي يقود الإنسان إلى الهلاك وقد يقضيه عن دينه. والخلوة تكون محل التجربة والتدريب للسلوك ويشفي فترة معينة للحصول على ثمرة هذه التجربة.

وقال الإمام الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" في باب الإلهام : زعم قوم من أهل التصوف أن الطريق في حصول الإلهامات أولاً قطع علائق الدنيا بالكلية، فيفرغ قلبه عنها، ويقطع همه عن الأهل والمال والولد، ومن العمل والولاية والخاء، ويصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل ذلك وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ الهم مجموع القلب، ولا يفرق فكره الخلوة قرآن، ولا يتأمل في تفسيره، ولا يكتب حديثاً ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء غير ذكر الله تعالى، وينتشر الخلوة قول : الله. الله. الله. على الدوام، مع حضور القلب.²⁹¹

²⁹⁰ القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك. 1421هـ - 2001م، الرسالة القشيرية في علم التصوف، إحقق: معروف مصطفى زيتي. بيروت : المكتبة العصرية. ص: 99.

²⁹¹ الغزالي. إحياء علوم الدين في باب الإلهام.

والخلوة لها سمات خاصة، منها الصمت عن الكلام، لا بمعنى حبس اللسان عن الكلام إطلاقاً بل بمعنى التحفظ في القول وعدم الاسترسال في اللغو أو البوح بالسِر. ولذلك أثر الصوفية الصمت إلا عند الضرورة وقول الحق وأحلو محل الكلام التفكير والتأمل. وهما طريق الحكماء، وذلك لأن الكلام إما أن يكون حقاً فيستدعي إعجاب الناس ومدحهم، والصوفية لا يقبلون الإعجاب والمدح الذي قد يدخل الرياء في قلوبهم، وإما أن يكون باطلاً وهو ما ينهى عنه الدين.

ومن سماتها دعاء ذكر الله ومراقبته كما وصف الله سبحانه هذا الشأن لأولى الألباب،²⁹² أي وصف الله تعالى أهل الألباب بأنهم يجمعون بين التذكر والتفكير، يذكرون الله في مختلف أحوالهم من قيام وقعود واضطجاع لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم، ويتفكرون ويفهمون ما في السموات والأرض من أسرار ومنافع وحكم دالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه ورحمته.²⁹³ وقال الإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة (606هـ): "المراد منه كون الإنسان دائم الذكر لله في كل الأحوال ليس إلا هذه الثلاثة، ثم لما

²⁹² سورة آل عمران : 190-191.

²⁹³ الزحيلي. الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي. 1418هـ. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. دمشق. دار الفكر المعاصر. الطبعة

الثانية، ج، 4، ص: 207.

وصفهم بكونهم ذاكرين فيها كان ذلك دليلاً على كونهم مواظبين على الذكر غير فاترين عنه

البته. 294

ومن سمات الخلوة أيضاً، المحافظة على آدابها سواء كان آداباً مع الله ورسوله وآداب مع الشيخ وأدب مع الإخوان. وأما آداب مع الله ورسوله فاتباع أو أمره، وترك نواهيه، ودوام ذكره، ودرس كتابه، ومراقبة أسرار العبد إن يختلج فيها ما لا يرضاه مولاه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والهمة والشفقة على خلقه. وكذلك آداب مع الشيوخ بالخدمة، والاحترام لهم، وتصديقهم فيما يخبرون عن أنفسهم ومشايخهم. وأما آداب مع الإخوان فبدوام البشر، وبذل المعروف، ونشر الخالصين، وستر القبائح، واستكبار برهم إياك، واستقلال إياهم، وإن كثر، ومساعدتهم بالمال والنفس ومجالية الحق والحمد والبغي وما يكرهون من جميع الوجوه، وترك ما يعتذر منه.

وقد ذكر الإمام الغزالي أهمية هذه الآداب بقوله: "فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسلك به إلا مسلك نفسه لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب". 295 ويقول عقب ذلك: مهما صفت الطوب استغني عن تكلف إظهار ما فيها ومن كان نظره إلى صحبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم ومن كان نظره إلى الخالق لزم

294 الرازي. فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن. (1421هـ-2000م). مفاتيح الغيب. بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

ج، 9، ص: 110.

295 الغزالي. إحياء علوم الدين. ج، 2، ص: 191.

الاستقامة ظاهرا وباطنا وزين باطنه بالحب لله ولخلقه وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده
فإنها أعلى أنواع الخدمة لله إذ لا وصول إليه إلا بحسن الخلق وبدرء العبد بحسن خلقه درجة

القائم الصائم. 296

والغاية من الخلوة هي تطهير النفس وتبديل صفاتها، لا الحصول في عين القرب، ولا الوصول
إلى الهداية، فهم يفهمون بقوله تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ
الْمُحْسِنِينَ) 297 يعني والذين هديناهم سبلنا يجاهدون فينا أي أن السير في طريق المجاهدة فرع

عن الهداية التي يمنحها الله من يشاء من عباده لا العكس، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى
: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ. 298 وبالحديث

القائل رواه الطبراني عن أسامة بن شريك قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

يقول : (ما من أحد يدخل الجنة بعمل، قلنا ولا أنت يا رسول الله؟ قال : لا ولا أنا إلا أن

يتغمدني الله عز وجل برحمة منه، ووضع يده على رأسي). 299

296 الغزالي. نفس المرجع. ج، 2. ص: 191.

297 سورة العنكبوت: 69.

298 سورة الأنعام: 125.

299 رواه الطبراني. أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (1404هـ-1983م). المعجم الكبير. تحقيق حمدي بن عبد الحميد السلفي.

مكتبة العلوم والحكم. الطبعة الثانية. ج، 1. ص: 187.

ومعنى هذا أن إرادة الله الهداية للعبد سابقة على شرح صدر للإسلام وعلى مجاهدته. وكأن
المسألة - حسب فهم هؤلاء الصوفية - مسألة العناية الإلهية والتقدير الأزلي، لا مسألة المجاهدة
والأعمال التي يقوم بها العبد.³⁰⁰

والخلاصة، لقد أثرنا فيما مضى إلى أن العلاقة بين الطريقة والخلوة شيئين مختلفين متمايزين
ولكنهما متكاملان في الحياة الصوفية، الأول : جانب المجاهدة أو تطهير النفس وممارستها
تكون في الخلوة خاصة. والثاني : جانب الكشف والإشراق. وقد يختص جانب المجاهدة
باسم الزهد وينفرد بجانب الإشراق باسم التصوف أو الطريقة بمعناه الأخص، غير أنه لا مبرر
لهذه التفرقة في الأسامي، فهما يتقاربان حياة واحدة. الشق الأول بمثابة المقدمات، والثاني بمثابة
النتائج المترتبة على المقدمات.

³⁰⁰ عفيفي، التصوف والثورة الروحية في الإسلام. ص: 149.